

نظريتي الخلق والتطور

هناك نظريتان رئيسيتان في الخلق: تقول الأولى إن الله هو الذي خلق جميع البشر، وخلق الأرض والسماء وكل ما في الكون من حيوانات وأشجار وكواكب وأشياء أخرى، فيما تقول النظرية الثانية إن الإنسان جاء نتيجة لعملية تطور بيولوجية. وفيما تعتمد الأولى في تفسيرها لعملية الخلق على أديان مختلفة، تعتمد النظرية الثانية على ما جاءت به من أفكار وأبحاث علمية واكتشافات أثرية.

إن من يؤمن بنظرية الخلق الإلهي، يؤمن أيضاً بأن الله خلق كافة البشر من رجلٍ واحد وامرأةٍ واحدة هما آدم وحواء، ما يعني أن البشر جميعاً يتكونون من جنس أو عرق واحد. أما من يؤمن بنظرية التطور، فيؤمن أيضاً بأننا جننا جميعاً من نسل حيوان واحد يشبه القردة ظهر في إفريقيا، ما جعلنا نبدأ رحلتنا على الأرض من قلب القارة السوداء. وهذا يعني أنه لا يوجد بيننا في حقيقة الأمر أجناس أو أعراق متباينة، فهذه أمور اخترعها بعض الرجال لتزوير الحقائق وتزييف وعي البسطاء من الناس والسيطرة عليهم واستغلالهم عبر العصور القديمة والحديثة. ولقد جاءت التشكيلات القبلية في عهود الجاهلية التي لم تعرف سوى العداة والسبي والنهب، ومن بعدها الايديولوجيات المؤسسة على الدين والقومية لتكرس مفاهيم العرق والجنس والأنساب، ما جعلها تتسبب في قتل بلايين البشر عن مدى عصور بلا عدد.

قد يقول البعض إن هناك شعوباً سوداء وأخرى بيضاء وثالثة صفراء، ولذا ليس بالإمكان أن يكون البيض والسود وغالبية الآسيويين من عرق واحد. لكن اللون لا ينفى وحدانية الأصل، لأن اللون هو نتاج البيئة الطبيعية وأشعة الشمس بالذات، وبالتالي لا يعود إلى بداية الخلق أو منشأ التطور. إن الإنسان الذي بدأ حياته في مناطق إفريقيا القريبة من خط الاستواء وبقي فيها، لم يكن باستطاعته أن يتحاشى أشعة الشمس لأكثر من ساعة أو ساعتين في النهار. في المقابل، لم يكن بإمكان الإنسان الذي بدأ حياته في مناطق باردة مثل شمال أوروبا وبقي فيها أن يتعرض لأشعة الشمس لأكثر من ساعة أو ساعتين في النهار، لأن الشمس تكاد لا تغيب عن المناطق الأولى، وبالكاد تُشرق في الثانية. لهذا تسببت أشعة الشمس والزمن الذي يقاس بمئات الآلاف من السنين في تحول لون الأول إلى السواد، وتحول لون الثاني إلى البياض، وتطوير كرموزومات تعيد إنتاج ذلتها، وتجعل نسل الأول يختلف من حيث اللون عن نسل الثاني. أما الإنسان الذي بدأ حياته في منطقة معتدلة الطقس مثل حوض البحر الأبيض المتوسط وبقي فيها، فإن لونه أصبح قمحيًا، يقترب أحياناً من الأسود، وأحياناً أخرى من الأبيض، لكنه ليس بالأسود أو الأبيض.

إن على مَن يشك في هذه النظرية أن يتخيل فقط لون شخص أوروبي أبيض تعرّض لأشعة الشمس بضعة أيام على شاطئ بحر دافئ، وأن ينظر إلى لون إنسان قمحي اضطر بسبب مرض إلى الانزواء عن عين الشمس في بيته لمدة ثلاثة أو أربعة أسابيع. إذ فيما يتحول لون بشرة الأول إلى لون قمحي داكن شبيه بلون سكان منطقة البحر الأبيض المتوسط، يتحول لون بشرة الثاني إلى لون شاحب البياض يميل إلى الاصفرار الذي يغلب على سكان آسيا. حتى الحيوانات التي تستوطن مناطق مختلفة من العالم تختلف ألوانها بين منطقة مناخية وأخرى، فالدب مثلاً يتراوح لونه من الأبيض الناصع في المناطق الباردة إلى الأسود الداكن في أماكن أخرى بعيدة. وفيما كانت هذه الفكرة تعبت في رأسي، رأيت سنجاباً في بيت صديق في ألمانيا ذا لون أشقر لم أرَ سنجاباً بلونه من قبل، علماً بأن حديقة بيتنا في مدينة واشنطن لا تخلو من السناجب صيفاً أو شتاءً. وكذلك هو الحال بالنسبة للقطط والكلاب والأغنام وغيرها من الحيوانات.

إن كل من ذهب إلى منطقة الخليج العربي في الخمسينات من القرن العشرين للعمل فيها لاحظ أن لون بشرة غالبية الناس في السعودية والكويت وعمان مثلاً كان يميل إلى السواد، وذلك بسبب تعرض الناس إلى أشعة الشمس ساعات طويلة كل يوم، كما لاحظ أيضاً أنه كان من الصعب رؤية شخص بدين يعاني السمنة. لكن من يذهب اليوم إلى نفس المنطقة فسوف يشاهد أن ألوان بشرة الناس وبنيتهم الجسدية تغيرت كثيراً، وذلك بسبب تغير نمط المعيشة في تلك البلاد عامة. إذ في ضوء شيوع البيوت والسيارات المكيفة والأسواق التجارية المغطاة وقلة المشي، وندرة تعرض غالبية السكان لأشعة الشمس، فإن ألوان الكثير من الناس تحولت من القمحي الداكن إلى لون يقترب من الأبيض، كما تحولت نسبة عالية منهم من النحافة إلى السمنة المفرطة أحياناً. من ناحية ثانية، كان لون بشرة اليابانيين والصينيين والكوريين وغيرهم من شعوب آسيوية قبل عقود قليلة يميل إلى الاصفرار بوجه عام. في المقابل، تحول لون الجيل الثالث من عامة اليابانيين والصينيين والكوريين الذين هاجروا إلى أمريكا وأوروبا إلى اللون الأبيض، وذلك بسبب تغير المناخ والطعام وطريقة الحياة، كما تسببت الإقامة لأجيال في دول الغرب في اختفاء بعض الملامح الصينية واليابانية والكورية المميزة.

وفيما تشير المعلومات إلى أن معدل طول الياباني زاد حوالي 5 سنتيمترات منذ منتصف القرن العشرين بسبب تحسن نوعية الطعام وتنوعه وارتفاع مستوى التعليم والرعاية الصحية، ما يزال سكان المناطق القطبية قصيري القامة بوجه عام. ويعود السبب في ذلك إلى أن العيش في أجواء تحيط بها الثلوج طوال السنة أجبر أولئك الناس على لف أنفسهم والتكور في الليل طلباً للدفاء. أما في القارة السوداء، فنلاحظ أن معظم الرجال والكثير من النساء فيها يتميزون بنحافة الأجسام وطول القامة، لأن شدة الحرارة

كانت وما تزال تدفعهم على مد أجسامهم للتهوية، وكذلك هو الحال بالنسبة لنسيم الصباح والليل المنعش الذي يوفر لهم فرصة التجول والتمدد والتمتع بالظلال والهواء الرطب.

قد يقول بعض البيض الذين ورثوا ثقافتهم عن المستعمرين الأوروبيين إن اختلاف الثقافات يُعتبر وحده دليلاً على اختلاف الأجناس وتباين الأعراق، وإن كل جنس له ثقافة خاصة تميزه عن غيره من أتباع الثقافات الأخرى. إن هذا تحليل خاطئ من الناحية العلمية، لأنه يقوم على فهم خاطئ لمكونات الثقافات وسبب تباينها، واختلاف خصائص ما ينبثق عنها من عادات وتقاليد وقيم ومواقف وطرق تفكير. إضافة إلى ذلك، يأتي هذا التفكير وما ينبثق عنه من استنتاجات غير علمية ليبرر التفرقة العنصرية والمواقف غير الأخلاقية التي اتخذها الإنسان الأبيض تجاه الشعوب التي تنتمي لثقافات غير غربية.

قبل ثلاثين ألف سنة تقريباً كان الناس جميعاً يعيشون حياة تجوال وتنقل، يقتاتون على ما يجمعونه من حبوب وفواكه وخضراوات، وما يصطادونه من حيوانات وأسماك. وقبل حوالي عشرين ألف سنة، كان كل الناس، في كافة بقاع الأرض، يعيشون حياة قبلية تقوم علاقات الناس فيها على الولاء المطلق للقبيلة وتقاليد القبيلة وأعرافها، وعلى العداء للقبائل الأخرى. وفي الواقع، كان كل لقاء بين الغرباء من الناس، وحتى سبعة آلاف سنة ماضية، يعني قيام كل شخص بمحاولة قتل الآخر، لأنه لم يكن لدى الغرباء وسيلة للتواصل والتفاهم. لكن بعد أن اكتشف الإنسان دورة حياة النبات ونجح في تطوير فن فلاحه الأرض، أصبحت جميع القبائل التي هجرت الحياة القبلية تعيش نمطاً زراعياً واحداً وتنتمي لثقافة واحدة، هي ثقافة الزراعة. وهذا يعني أن كل البشرية مرت بنمط حياة وثقافة العصر القبلي، ومن ثم نمط حياة وثقافة العصر الزراعي قبل أن يصل البعض إلى نمط حياة وثقافة العصر الصناعي، أي الثقافة الغربية.

في أول زيارة قمت بها لمتحف الفنان العالمي فان كوخ في مدينة أمستردام، وقفت مشدوهاً أمام لوحات غير مشهورة لذلك الرسام العظيم. كانت اللوحات المعنية تصف حياة البيت الريفي في هولنده وبلجيكا وفرنسا في أواخر القرن التاسع عشر. وحين تأملت وظيفة ذلك البيت التقليدي، وجدت أنها تشبه وظيفة البيت الذي ولدت فيه في فلسطين، والبيت الريفي في مصر الذي عرفته في الستينات من القرن العشرين، والبيت الريفي المغربي الذي عرفته في أوائل القرن الحادي والعشرين. لذا قلت لو إن الفنان فان كوخ عاش مئة سنة أخرى لكان بإمكانه أن يرسم نفس اللوحات في المغرب أو تايلاند أو المكسيك، لأن حياة البيت الريفي في تلك البلاد في أواخر القرن العشرين كانت شبيهة بحياة البيت الريفي في معظم بلدان أوروبا قبل ذلك بقرن من الزمن. وهذا يعني أن الثقافة الأوروبية تطورت من ثقافة قبلية إلى ثقافة زراعية إلى ثقافة صناعية، وأنها لم تولد كما هي اليوم، أو كما يحاول البعض أن يقدمها للعالم على أنها ثقافة مميزة

موروثة منذ أجيال. ولو نظرنا إلى ثقافة المنشغلين في الصناعة في اليابان وكوريا الجنوبية والصين اليوم فسوف نكتشف أنها تشبه ثقافة الفئات الأوروبية والأمريكية المماثلة، فيما تختلف بشكل كبير عن ثقافات الفئات الشعبية التي ما تزال تمارس فلاحه الأرض وتعيش نمط حياة زراعي في معظم دول العالم غير الرأسمالية، بمن فيها الدول الآسيوية الصناعية.

إن إدراكنا لهذه الحقيقة التي نقول إن جميع البشر ينتمون لأصل واحد من شأنه أن يجعلنا ننظر إلى كل امرأة تكبرنا في السن وتتنمي لحضارة تجاوزناها بقرن تقريباً على أنها تعكس صورة جدة لأحد أجدادنا. وهذا من شأنه أن يدفعنا إلى التقرب منها ورؤية التاريخ حياً في مواقفها وتقاليدها وطريقة حياتها وما لديها من أمثال وحكايات وحكم، وبالتالي النظر إليها بعين الرضا والتقدير والمحبة. أما الإدعاء بأن الثقافة تعكس الانتماء إلى جنس أو عرق مختلف وربما متخلف، فمن شأنه أن يدفعنا إلى النظر إلى غيرنا من شعوب نظرة شك وريبة، ما يجعلنا نتحاشى التقرب منهم والتفاعل معهم، وقد يحرصنا على مناصبتهم العداء والكراهية من دون سبب، وهذه مشاعر تنتقص إنسانية الإنسان وتحرمه من متعة الحياة والسعادة التي يشكل التنوع الثقافي أحد مصادرها الرئيسية. إن وعي الأمور المتعلقة بنظريات الخلق، وإدراك أهمية أبعادها على رؤيتنا لبعضنا البعض من المؤكد أن يجعلنا أكثر إنسانيةً وميلاً للتعاون مع غيرنا من البشر والتعاطف معهم، وأكثر احتفاءً بالتنوع الثقافي الذي يُثري حياتنا ويعززُ إنسانيتنا جميعاً.